مع غزّة

حاتم الصكر

المستقبل لن يُخطئ طريقه إليكم

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «الطّغاة والمحتلّون لا يقرأون صفحات التاريخ جيداً»، يقول الشاعر والناقد العراقي في حديثه لـ«العربي الجديد»

بطاقة

ناقد وشاعر وأكاديمي عراقي من مواليد بغداد عام 1945، مُقيم في تنسي بالولايات المتحدة الأميركية. من مؤلّفاته النقدية: «البئر والعسل: قراءات معاصرة في نصوص تراثية» (1994)، و«حلم الفراشة: الإيقاع الداخلي والخصائص النصية في قصيدة النثر» (2004)، و«نقد الحداثة: قراءات استعادية في الخطاب النقدي وتويعاته المعاصرة» (2014)، و«تنصيص الآخر» (2022)، وفي الشعر: «ربما كان سواي في الدواوين الأربعة» (2023).

نسبي (الولايات المتحدة)
العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

أسائل وبصدمة لا توصف غيبوبة الضمير البشري، وسُبات سلطة العقل، وانكشاف زَيف شعارات الثورات الكبرى والدساتير والديمقراطية وحقوق الإنسان. أين «المتحضّرون» الذين يُبالغون في مظاهر الإنسانية والعدالة حدّ البحث عن حقوق الحيوان، ويعصبون أعينهم عن إبادة جماعية مُتلفزة، شبيهة بـ«قصة موت مُعلَن»، يعلم به الجميع.

إنها لحظة حزينة في تاريخ البشرية سيحفظ التاريخ عارها. عار بلغ ذروته، وبعد أشهر من مجازر مفتوحة بلا رادع وتدمير مُمنهج لكل شيء في غزّة: يُقال في الغرب إنه ليس هناك ما يدلّ على وجود تلك الإبادة، ولا ضرورة حتى لوقف إطلاق نار يلتقط فيه الناس أنفاسهم، ويدفنون موتاهم أو يبحثون عنهم في ركام صنعته الطائرات على مدار الساعة.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

ارتباط شديد. ضياع بوصلة العقل، ومتابعة مُميتة لما يجري. خوف من اعتياد الناس على مشاهد الموت حتى تغدو أمراً هيّناً. ذاك اقلقني، وطاول يومياتي وأولوياتي، واعتراني ما يُشبه الشّلل الذهني. تشتّت وتساؤل ورعب. لقد تعرّضتُ لفقدٍ كبير.

فقدتُ ابني مخطوفاً في حمّى الاحتراب الطائفي في العراق قبل سنوات. كانت محنة وصفها الراحل العزيز أمجد ناصر في مقال له بأنها تعرّ وتبهظ الضمائر والقلوب. والآن كيف لا أشعر بأسىً مُمضّ، وأنا أرى الأمّهات والزوجات والآباء والأجداد والأطفال يبحثون عن أحبّتهم في رُكام الدمار الشبيه بكارثة كونية صاعقة؟

■ إلى أي درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

لقد أيقنتُ أنّ ما يجري هو جريمة تاريخية قَيّض لنا قدرُنا أن نكون شهودها. وهي من الخطورة بحيث لا تُدانيها كلمات أو صيحات. وصار ذلك الشعور بالعجز يدبّ في تلعثم كلماتنا. ما نرى لا تحدّه أوصاف أو بلاغات. وكان ما كتبته وكثير من زملائنا محاولة لتأويل ما يجري وقراءة امتداداته التاريخية. ولكنّ هول ما يحدث والتزييف الذي يُصاحب الجريمة جعل كلماتنا قاصرة عن بلوغ الهدف. أذىً هائل يُسبّبه عنف الصورة، وسعة الكارثة، وتدبير الموت الجماعي، وصمتُ العالم وتواطؤ حكّامه وأنظمته.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختار مجالاً إبداعياً أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

أحسّ أنني لن أغيّر من موقعي الفكري والثقافي. لدي شعور بأن ما نشأتُ عليه وقرأته ودرسته ثم قمتُ بإجرائه في تجربة الكتابة، أصبح جزءاً منّي.

يغيب بغيابي ويلتصق بشخصيّتي ما دمتُ أعيشها وتتلبّسني. لا أجيد سواها. الكتابة هنّا وفردوسنا الأرضي وطيف جحيماتنا أحياناً كما في اللحظة الفلسطينية الماثلة.

والكتابة تحتوي كلّ ما اقترحه السؤال: سياسةٌ وإنسانية. وجود الكتابة شاهد على الحياة، وتوقّفها هو الموت بأكثر أسمائه رعباً.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

استيقاظ العقل الغربي خاصة من أوهامه وضلالاته في تصوّر ما يدور اليوم. وتبعيّة العالم لتوصّلاته ووجهات نظره. أن يقرأ ما يحدُث حوله لا بفعل الصُور النمطية التي صنعها ليقنع نفسه بصواب ما يُفكّر به.

ثمّة قناعات هزيلة تتحكّم في العالَم جلّها مفارقات ومصادرات منطقية وحِيَل كلامية وتزوير للتاريخ. خُذ مثلاً تصوير العرب كمُعادين للسامية وهم ساميّون. وتحميلهم وزر المحرقة، وصانعوها أوروبيّون يُساهمون اليوم في تغذية الموت اليومي في فلسطين. وتمجيد القاتل، ومحو الضحية.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

سأكلّم كثيرين، السيّاب وهو يسأل قبل نصف قرن: «قابيل أين أخوك/ يرقد في خيام اللاجئين». لم تعد من خيام حتى. طارت بها الطائرات المُغيرة. ولمحمود درويش: الأرض التي عليها ما يستحقّ الحياة احترقت. لا يتبيّن من وجهها وظهرها إلا الدم والحرائق.

وللمتنبّي: ثمّة غربة مضاعفة تتعدّى الوجه واليد واللسان إلى وجودنا كلّه، نعيشها حتى في أوطاننا. ولغسان كنفاني: ليس من خرّان تدفّه الأيدي. اضحت الأرض كلّها خرّاناً تنصهر في ظلامه الأرواح والأجساد والأفئدة.

لحظة حزينة في تاريخ البشرية سيحفظ التاريخ عارها

وجود الكتابة شاهد على الحياة وتوقّفها هو الموت

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

ما من كلمة ترقى لما عانيتم وتعانون. ولا لوصف أسطورة حياتكم وسط سُعار العدوان ووحشيّته. المستقبل لن يُخطئ طريقه إليكم، ولكن ببذلٍ ندرك كم هو باهظ وكبير.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

لتشعر بإنسانيتك، وتتلثّف الجديد، ولا تخشَ أن يمسخ هويتك، تلك بدعة حيكت لتظلّ مكانك لا تبارحه، ولتُحتكم لعقلك. لم يعد من ثمر مُحرّم في شجرة المعرفة. اما ان لنا ان نحيا في قلب عُصرنا لا على هامشه؟ أشاطركم السؤال. أبحث عن إجاباته في الأدب، فاجدنا لا نزال نخشى الكثير من المُغايرة والمغامرة، ونجترّ ثوابتنا ولا نتوفّر على مراجعة عقلية لها. وتضطرب صلتُنا بالآخر بين تبعيّة مُذلّة، ورفضٍ متشنّج، وتسير الثقافة خطّيّاً. تتراكم النصوص والمفردات ولكن دون قفزة نوعيّة تصنع التحوّل المطلوب. ما زال سؤال الأشكال في الكتابة غائماً ومشوّشاً تحفّ به الموانع وتصدّه القناعات المتمترسة وراءها. كلّ خطوة للأمام تشدّنا عشرُ للوراء. لنتأمل مثلاً عودة شعر المهرجانات والشفاهية الغنائية والأشكال الشعرية التي نفد مفعولها.

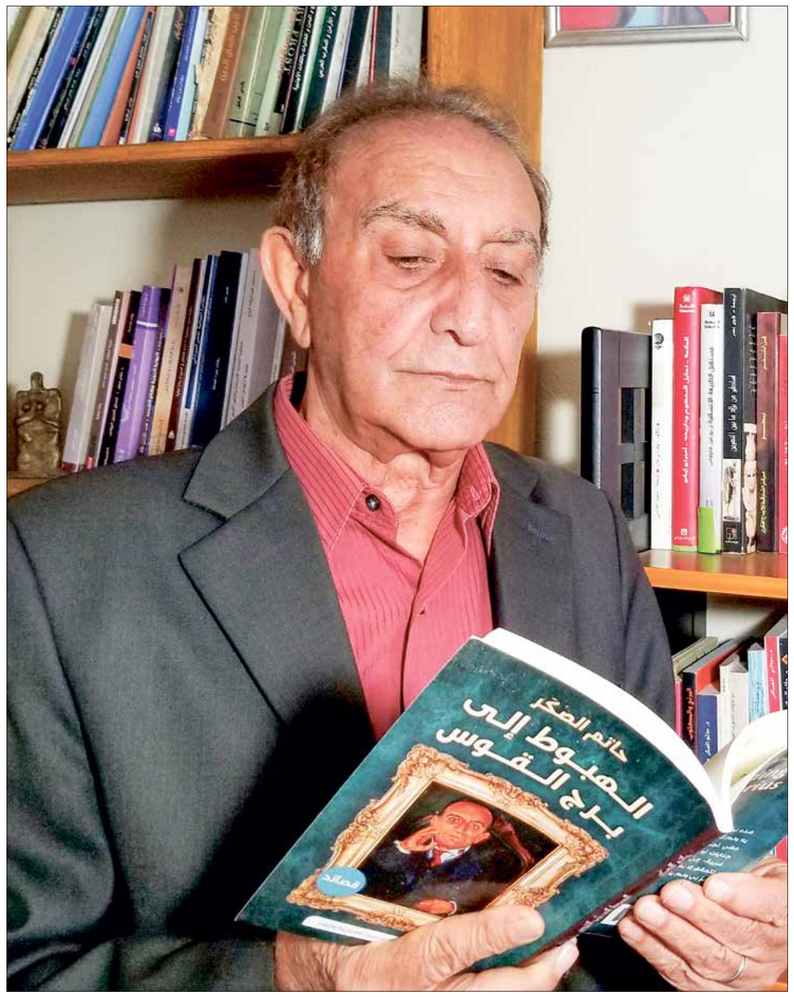

حاتم الصكر

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة داريـن البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي». ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

طفولتكم مؤجّلة لأن ساعة الزمن توقّفت بحسب التوقيت الصهيوني. لكنّكم، دارين وجيلك تحيّون في الضمير والقلب، ولكم الغد...

وكلّ باطل ستدروه الرياح. هكذا يعلّمنا التاريخ الذي لا يقرأ الطّغاة والمحتلّون صفحاته جيداً.

رحيل

كتّبَ تجربة الحفاظ على الهوية في سراييفو

البوسنة تودّع شاعرها عبد الله سيدران

بعد مسيرة حافلة بالإنجازات الأدبية رحل الشاعر والكاتب البوسنوي، السبت الماضي، لكنّ أعماله ستبقى تُذكّر بالتزامه بقضايا بلاده وشعبه

سراييفو ـ **العربي الجديد**

نعت الصحف البوسنية الكاتب والشاعر ومؤلّف الأفلام عبد الله سيدران، الذي غادر عالمنا، السبت الماضي، عن ثمانين عاماً، بعد صراع مع المرض استمرّ عدة شهور، وهو الاسم المخضرم الذي اشتُهر في يوغسلافيا السابقة ولم يتخلّ عن البوسنة خلال السنوات الصعبة من الحرب (1992 - 1995)، وهو الذي حرص في أعماله الشعرية والنثرية على تمثيل غناها التاريخي وتعدّدها الإثني والثقافي. وُلد عبد الله سيدران في سراييفو عام 1944، لأب يعمل في ورشة للقطارات، حيث درس وتابع تعليمه في «جامعة سراييفو» قبل أن يتخرّج من قسم الآداب اليوغسلافية. ظهرت موهبته الأدبية مُبكّراً حيث أخذ ينشر أشعاره في الستينيات بينما ظهرت أول مجموعة شعرية له «شهباز» عام 1970، ليُعدّ بذلك من جيل الستينيات الذي ترافق مع تحوّل يوغسلافيا التيتوية بعد 1966 نحو مزيد من الليبرالية في الأدب والاقتصاد والمجتمع.

في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين غدا سيدران اسماً معروفاً بعد نشْر مجموعاته الشعريّة والمسرحيّة «عَظْمٌ ولَحْم» (1976)، و«مجموعة سراييفو» (1979)، و«مرض الروح» (1988)، وخاصة بعد أن برز في كتابة السيناريوهات لبعض نصوصه النثرية التي تحوّلت إلى فيلمين مشهورين بالتعاون مع المخرج البوسني أمير كوستوريتسا: «هل تتذكّر دوللي بيل؟» (1981)، و«أبي مسافر في مهمّة عمل» (1985)، اللذان فازا بجوائز يوغسلافية وأوروبية. في غضون ذلك، انتقل سيدران للعمل ككاتب للدراما في «تلفزيون سراييفو» حتى 1992، حين بدأ حصار سراييفو وتعرّضها للقصف المتواصل من قِبل القوّات الصربية. مع ذلك فقد ألهمته سنوات الحصار والحرب، التي هدفت إلى استئصال الهوية البَشْناقية، التشبُّث بسراييفو لما لها من رمزية وإبداع، كما نشر أشعاره خلال الحرب بعنوان «تابوت سراييفو» (1993)، التي تُرجمت إلى عدّة لُغات ونالت «جائزة جمعيّة القلم الفرنسية».

بعد الحرب تابع سيدران نشر أعماله الشعرية والمسرحية، مثل «لماذا تغوص البندقية» (1996)، و«مجموعة سراييفو» (1997)، و«في ترافنيك تركتُ قلبي» (2002)، وغيرها التي عبّرت عن روح البوسنة التي حلّقت ثانية بعد أن نجت، وبالتحديد روح البوسنة التي عُرفت بالتسامح والتعدُّدية الإثنية والثقافية حتى أنها شهدت أكبر نسبة للزواج المختلط في يوغسلافيا التيتوية. ولذلك قال عنه صديقه المُستعرب أسعد دوراكوفيتش في نعوته إنه «كان شاهداً على عصره وسيبقى حيّاً في اللغة وفي أعماله الكبرى». بسبب تجربة سيدران الثريّة تُرجمت أعماله إلى العديد من لغات العالم كالفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والسويدية والبولونية والتشيكية وغيرها، بينما صدرت له في العربية مجموعته الشعرية «دموع أمّهات سراييفو» عام 2009 بتوقيع المستعرب البوسني ناركو كارامان. وقد حظيت أعماله منذ 1979 بجوائز عديدة، حين حصل على «الجائزة السنوية لرابطة الكتّاب في البوسنة والهرسك»، و«جائزة زماي» المعروفة على المستوى اليوغسلافي عام 1980، ثم «جائزة حرية التعبير الأميركية» (1993)، و«جائزة جمعية القلم الفرنسية» (1993)، و«جائزة المختبر المتوسطي» (1996)، و«جائزة إمبرتو سابا» (2005)، الإيطاليّتين. وكان من اللافت حصوله على «الجائزة الذهبية لمهرجان بولا السينمائي» اليوغسلافي عن الأفلام الثلاثة التي اشتهرت خارج يوغسلافيا: «هل تتذكّر دوللي بيل؟»، و«أبي مسافر في مهمّة رسمية»، و«كودوز».

كانت هذه الأفلام الناجحة بفضل السيناريو الذي كتبه سيدران والإخراج الذي قام به أمير كوستاريتسا تُعبّر عن خصوصية البوسنة وعن الصداقة التي ربطت آنذاك بين الاثنين في سراييفو. ولكن الحرب في البوسنة (1992 - 1995)، أفرزت كغيرها ما لدى البشر من نزعات متضادّة، حيث أفترق الصديقان بعدها كلٌّ في اتجاه. فقد حافظ سيدران على مسيرته الإبداعية التي بقيت مرتبطة بروح البوسنة التي نجت من الحصار والحرب الدموية، بينما فاجأ كوستوريتسا معارفه بتغيير دينه واسمه (نيمانيا كوستوريتسا) لينضم إلى جمهورية الصرب في البوسنة، حيث أقام هناك مدينة سينمائية باسم «أندريتش غراد» لتصوير فيلم عن رواية «جسر على نهر درينا» لإيفو أندريتش.

ويبدو أن هذا الانتقال الذي فاجأ صديقه عبد الله سيدران دفعه إلى البحث عن جذوره والكشف عنه في كتاب بعنوان «سيدران: العيش والشهادة على العصر»، صدر العام الماضي، وهو عبارة عن حوارات معه أجراها الكاتب رجدي أجوفيتش. ففي هذا الكتاب كشف سيدران عن أنّ مراد كوستوريتسا والد صديقه أمير كان يعمل سرّاً في جهاز المخابرات، بينما كان أمير يقول عن والده إنه كان صحافيّاً. في حين أن سيدران يكشف في هذا الكتاب أنه لا يوجد مقال باسم والد المخرج سواء في الصحافة البوسنية أو اليوغسلافية.

رحل سيدران، الذي انتُخب عضواً في «أكاديمية العلوم والفنون» بالبوسنة تقديراً لأعماله الأدبية التي حملت روح بلاده، سواء في لغتها أو في لُغات العالَم التي تُرجمت إليها، ولعلّ هذه الروح هي ما سيبقى أعماله حيّة كما قال عنه صديقه أسعد دوراكوفيتش.

تجربة أدبية وإنسانية شهدت حصار البوسنة ونهوضها بعد الحرب

عبد الله سيدران في باريس عام 2019 (Getty)

إطلالة

الأشلاء التي تناثرت فجّرت معها الأوصاف

رفح ومغامرة القاتل الأخيرة

ليست استباحة للتاريخ كي يقارعه الإنسان بتاريخ مضادّ، ولا لـ«القانون الدولي» فقط، إنّها استباحةٌ للبشر وقتلٌ للجغرافيا نفسها

سومر شحادة

مع رؤية القاتل طليقاً وسط سجنٍ أنشاه، وملك مفاتيحه، وصار له أن يفرض سلطة الموت على قاطنيه، فقدنا اللغة التي نالفها، حتّى إنّ إطلاقَ لفظ حرب على ما يحدث في غزّة يحتاجُ إلى مراجعة وتدقيق. لأنّ الحرب كما يخطر لقارئ اللغة المألوفة، تزالُ بين قوّتين، صراع بين جيشين. لكن تلك «الحرب» التي نراها على الشاشة، ونقرأ أخبارها، تظهر أشبه بصناعة للجحيم يقوم بها قتلةٌ أطفال ومهووسون. أقرب أن تكون غزوةً يقوم بها دخلاء أشرار وأوغاد، المؤكد أنّها عدوان، واستباحة وإبادة. يعزّ على المرء أن يرى شواطئ غزّة، أن يرى أبنيتها قبل القصف، ويراها بعد قصف الطائرات ودكّ الصواريخ لها. ساءَ من رأى، ويصعب قبول الحرب تعريفاً للمذبحة المفتوحة. ولو أن الانشغال بالتوصيف نفسه بالمبدأ، أمرٌ أشبه أن يكون بتمائم إنسان عاجز، لم يعد لديه ما يقوله إلّا أن يصرخ، مشدوهاً ومُحَدِّقاً ومشلول التعبير، وقد تجاوزه الواقع، وقد رمى به واقع القتل الذي أحدثه الصهاينة، مثل جثّة ممدّدة في أرض خلاء. فلسطين، جسدٌ يُقطّع، مادةٌ تفجّر بما فيها من بشر وتراب. وفي الحاضر الذي نعانيه، يلمحُ المرء أن الأشلاء التي تناثرت، فجّرت معها شيئاً من توصيفٍ كان يراوح بين أن تكون غزّة زنزانة أو مذبح. خرج السجناءُ من قيودهم، خرجوا من السجن إلى الموت، وبموتهم أطلقوا قيوداً على مَن شاهد القتل. وعلى مَن أراد للقتل أن يُنجَزَ بسرعة. إلا أنّ الصهاينة أطالوا أمدَ بقاء السكّين على الرقبة. ومع إطالة أمد القتل، غامر القاتل بانكشاف مشروعه المروّع، الذي يضمر مفردةً واحدةً، وهي الفناء.

تُصرّح أميركا باستمرار بأنّها ترفض عمليةً يعتزم الصهاينة القيام بها في رفح، حيثُ طلب العالم من الفلسطينيّين أن يخرجوا إلى رفح ليحفظوا أراوحهم، وأميركا تقول إن العملية سوف تَعزل «إسرائيل»، لكن جميعنا يعرف أنّ لأميركا - ومن وراءها الغرب - خطابين؛ واحدٌ يصدرونه إلينا وللعالم، وآخر يوجّهونه للصهاينة كي يفعلوا ما يشاؤون. قدَمُنا مُباح، ونحن أعجزُ عن القول أو الاعتراض. الأمر الوحيد الذي بوسعنا أن نقوم به، هو اعترافنا بأنّنا شهدنا المذبحة. وإدراكنا، أنّ الجريمة الإسرائيلية الكبرى على وشك أن تحدث في رفح، وبأنّنا نشهد مذبحة قام بها قتَلة أطفال ضدّ سجناء في أقسى عملية عقاب جماعي يُمكن أن تحدث. مهووسون وقتَلة، محتلّون وسجّانون أفردوا سلاحهم على مَن هم تحتَ أسْرهم، عُزّلاً وأبرياء.

لكن هل ينفع ذلك الحدس المروّع بأنّ المذبحة سوف تستمرّ في رفح؟ أم أنّه تفكيرٌ بذاته مقتلةٌ وضيق. وما الذي يوسع الناس أن يفعلوه وسط الاستباحة، وهي ليست استباحةً للتاريخ كي يقارعه الإنسان بتاريخ مضادّ، وليست استباحةً لـ«القانون الدولي» فحسب، كي يعزل الإنسان قانوناً يتعزّى به. إنّها استباحةٌ للبشر، استباحةٌ وقتلٌ للجغرافيا نفسها. حتى ولو خرج الردم من غزّة ليبني ميناءً أميركياً، فإنّه زادمُ قتلٍ.

(روائي من سورية)

يصعب قبول الحرب تعريفاً لواقع هذه المذبحة المفتوحة

فتىً يجلس أمام منزله وقد دمّره العدوان، رفح، 24 آذار/ مارس 2024 (Getty)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

ضمن فعاليات النسخة الثانية من مهرجان «تونس مسارح العالم»، تُعرض عند التاسعة والنصف من مساء اليوم في «قاعة الفن الرابع» بتونس العاصمة مسرحية **مترو غزة** للمخرج الفرنسي **هيرفي لواشمول**. تكشف المسرحية واقع الفلسطينيّين تحت الاحتلال الإسرائيلي من خلال قصة شابّة تتخيّل رحلة من جنين إلى غزّة.

جنين، الأرض غير المحروقة، عنوان معرض الصحافية الفلسطينية **شذا حنايشة** الذي يُفتتح في الخامس عشر من الشهر المقبل في «دار النمر للفنّ والثقافة» ببيروت ويتواصل حتى 25 أيار/ مايو 2024. يضمّ المعرض صوراً التقطتها حنايشة خلال تغطيتها لاقتحامات جنود الاحتلال الصهيوني لمدينة جنين بين عامَي 2022 و2024، وكذلك مخيّمات جنين وطولكرم ونور شمس خلال الفترة نفسها.

تُعرض عند التاسعة والنصف من مساء اليوم الاربعاء على خشبة «مسرح الشمس» في عمّان مسرحية **يا طالعين الجبل** للمخرج الاردني **عبد السلام قبيلات**. يستند العمل إلى وقائع مجزرة دير ياسين التي ارتكبتها العصابات الصهيونية في التاسع من نيسان/ إبريل عام 1948، في لوحات موسيقية وغنائية تنتمي للتراث الفلسطيني.

تُنظّم **حملة التضامن مع فلسطين** (PSC)، عند الثانية عشرة من ظهر السبت المقبل مظاهرة تحت شعار **وقف إطلاق النار الآن - اوقفوا الإبادة الجماعية**، وتُقام في وسط لندن. يشير بيان الحملة، التي تواظب على تنظيم المظاهرة كلّ سبت منذ بدء العدوان الصهيوني، إلى مشاركة أربعمئة ألف متظاهر السبت الماضي.